٦٨ المقريزى
الفقيه المؤرخ صاحب الخطط

ربما لا يكتمل بحث أى دارس فى تاريخ القاهرة إلا بالرجوع إلى كتاب مهم جداً عن تاريخها، عنوانه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو الكتاب المشهور باسم الخطط، للمؤرخ أحمد بن على المقريزى، حيث إنه توافر على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع وميادين إلى دروب وقياسر وحمامات، إلى رباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم رجال الدولة ونظم الحكم فى مختلف العصور.

ولعل مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب تشى بالكثير مما نريد أن نعرفه عن شخصية هذا المؤرخ الخالد، لما اكتنف هذه الشخصيات من منحنيات ذكرها البعض ـ إمَّا قصداً للإساءة إلى هذا المؤرخ، أو عن غير قصد، حيث جاءت فى سياق الحديث عنه.. والأمران معاً يتطلبان التوضيح الذى ربما توفق فى تقديمه هذه الصفحات، هذه العبارة التى جاءت فى مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب، والتى تزيل الكثير من اللبس والغموض حول أصالته العربية تقول: «وكانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى».

لكن قبل التعرض لما وراء هذه العبارة من دلالات ومعانٍ، أو أسباب وعلل، نتعرف علي شخصية صاحبها.

إنه أحمد بن على المقريزى، ولد فى عام ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بالقاهرة، فى أسرة معروفة أجيالها بالعلم فى دمشق بسوريا، أو فى بعلبك

بلبنان.. أو هذا الحى من القاهرة. أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة المثقفة من الطبقة الوسطى ـ على قول المصطلح الاجتماعى المعاصر ـ أمَّا هذه الحوادث فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكية، ذات بطولات شامخة سالفة، وأمجاد ماضية، ملأت عين التاريخ فى الشرق والغرب. ومن نافذته الفكرية شهد المقريزى الكثير من هذه الحوادث طوال عشرين عاماً، هى عمر طفولته وصباه، وبدايات شبابه.

وإبَّان هذه الحوادث المتقلبة عكف المقريزى ـ طفلاً وصبياً وشاباً ـ على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته، وهى دراسة علوم الدين، وحفظ القرآن، ومعرفة النحو، ودراسة الفقه والتفسير والحديث، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ، وتقويم البلدان، والأدب والحساب.

غير أن نظرة متفقه مع الدكتور محمد مصطفى زيادة إلى أعماله التأليفية تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة، مثله فى ذلك مثل أستاذه عبد الرحمن بن خلدون، الذى رأى ما رأى بأسبانيا الإسلامية، والشمال الإفريقى من تفكك وفساد وفتنة وانحلال، فألهمه ذلك إلى تأليف تاريخه المسمى بكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

لقد ترددت هذه النغمة فى مؤلفات المقريزى لأسباب كثيرة، أولها تلمذته المباشرة على العلامة ابن خلدون وثانيها المحيط المملوكى الذى عاش وانغمس فيه، وثالثها أن أسرة المقريزى جاءت إلى مصر حديثاً فى حياة أبيه من موطنها بعلبك بلبنان، ولا بد أن امتلأت أحاديث هذه الأسرة بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة ومقارنتها بالحياة اللبنانية، فتولدت عند مؤرخنا المقريزى روح الإستطلاع والفحص منذ طفولته وصباه وشبابه.

وكما يسجل الدكتور محمد مصطفى زيادة فى حديثه عن هذا المؤرخ الخالد، بأن اسمه يرجع إلى حارة مقريز فى بعلبك بلبنان، ولا يسع الدكتور زيادة إلاَّ أن يشير ـ فى هذا الصدد ـ إلى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم «المقريزى» فى اللغة الإيطالية، حيث يطلق على جهة بإيطاليا قريبة من عاصمتها روما، مما يحتمل معه

أن تكون حارة «مقريز» البعلبكية هى سكن لجالية من الجاليات الإيطالية الكثيرة التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى أيام الحرب الصليبية، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوربية من الشرق.

ولكن الدكتور زيادة يحقق هذه المسألة تحقيقاً علمياً خلاصته أنه لا ينبغى أن يتسرب إلى الذهن أن المقريزى من سلالة إيطالية، لأن أباه وأسلافه معروفون فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة، وينتسب إلى الفاطميين على قوله فى الحديث عن نفسه، وجده لأمه من المحدثين الأحناف الكبار، هذا إلى جانب أن المقريزى جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم، وهو ما لا ينتظر أن تشتغل به أسرة أجنبية التى عادة ما يشتغل أبناؤها فى المهن والصناعات والحرف. وثمة دليل ثالث على أصالة المقريزى العربية الإسلامية، هو أن المؤرخ السخاوى الذى اشتهر بتعقب أخبار السابقين والمعاصرين لم يذكر شيئاً عن هذا الاحتمال، مع ما هو معروف عن السخاوى من الغرام بالبحث فى أصول الناس وأسرارهم، ولا سيما أهل صناعته من المؤرخين.

وبحكم طبقته واعتباره من أهل العلم، وهى المهنة المميزة لهذه الطبقة عن طبقة أهل السيف وهم المماليك. التحق المقريزى بالخدمة الحكومية فى ديوان الإنشاء بالقلعة وهو الديوان الذى يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية، فعمل كاتباً به، وهى وظيفة لا يبلغها إلا أصحاب المؤهلات العالية، والموهبة والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان.

بعد ذلك اختير قاضياً شافعياً، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الحنفية الذى نشأ فيه، ثم أصبح إماماً لجامع الحاكم الفاطمى، ثم مدرساً للحديث والتفسير بالمدرسة المؤيدية، وهى وظيفة يقابلها أستاذ كرسى بالجامعة. ويبدو أن هذه الوظيفة كانت بتوصية من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون للسلطان برقوق.

لكن لم يستمر فى هذه الوظائف التى تدور فى فلك الدين والعقيدة، إذا انتقل إلى وظيفة الحسبة، حين عينه السلطان برقوق محتسباً للقاهرة والوجه البحرى،

فانتقل بذلك من المشتغلين بالفقه والدين والتعليم إلى دائرة الإدارة والاختلاط بالناس، حيث الأسواق والأسعار والموازين والنقود والشوارع وتنظيم الحركة بها. مع الإشراف على المدارس والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات، ومراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمهندسين والمعلمين والمعماريين، يُضاف إلى كل ذلك مراقبة الباعة الجائلين والمتعطلين والشحاذين وغيرها من وظائف تشترط فيمن يتولاها الكفاءة والدقة والعدل والنزاهة فى الحكم، والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية.

غير أن المقريزى تنحى عن وظيفة «المحتسب»، إذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته، وصرفته عن القراءة، وتطلبت منه الجلوس على أريكة المحتسب للفصل بين الناس وحل مشاكلهم ليعود إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى، حين عينه السلطان برقوق مدرساً للحديث والتفسير بالمدرستين الإقبالية والأشرفية بدمشق فى سوريا، ثم قاضياً بها، وهى وظيفة اعتذر عن قبولها. حيث سئم الوظيفة وما يتبعها من مسئوليات تَصرُفه عن العلم والتفقه فيه، والتأليف والكتابة، بل والتأريخ وهى أعمال نذر نفسه لها جميعاً.

ولعله كتب فى هذه الفترة كتاب السيرة النبوية بعنوان «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأخوال والأتباع» الذى استهله قائلا: «إنه غير جميل أن يتصدى للتدريس والإفتاء، والجلوس للحكم بين الناس، والفصل فى قضاياهم.. أن يجهل من أحوال رسول الله، وجميل سيرته ما لا غنى عن معرفته.» وكتب أيضاً ـ إبان تواجده بدمشق ـ كتاباً آخر فى التاريخ الإسلامى. عنوانه «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التى بنى عليها أستاذه عبد الرحمن بن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ.

ويعود إلى القاهرة حيث ينصرف إلى التدريس والتأليف. وكما يقول الدكتور زيادة فى تأريخه للمقريزى بأنه حج إلى بيت الله الحرام ليفصل بين مرحلتين من حياته، ليقضى هناك بمكة خمسة أعوام اشتغل خلالها بتدريس الحديث وتفسيره،

ولعله قام بتأليف عدد من الكتب فى هذه الفترة، منها «الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام» و«ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى» و«التبر المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك» وغيرها من كتب صغيرة تعنى بتاريخ العرب وأخبارهم..

ويرحل عن مكة عائداً إلى القاهرة، حيث يستقر فيها بقية حياته فى حارة «برجوان» التى كان يفاخر بها على سائر حارات القاهرة، ليجعل من داره مكاناً للتدريس والتأليف حيث بدأ كتابة مؤلفه الأشهر فى تاريخ القاهرة والمعروف باسم: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وهو الكتاب المعروف باسم الخطط المقريزية. وسُمى بالخطط لأنه اعتنى بدراسة معالم القاهرة من حارات وشوارع ورباع وأسواق ومدارس ومستشفيات ومساجد، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى، وتراجم لرجال الدولة ونظم الحكم..

وزادت مؤلفاته الكبرى والصغرى على المائة كتاب، ولعل من أهمها بعد كتاب «الخطط» وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» كتابين: الأول منهما «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم» الذى أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة الإسلامية بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية. والكتاب الثانى هو «إغاثة الأمة بكشف الغمة» الذى تناول فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى زمنه، مما أدى إلى انتشار الأمراض، وأهمها الطواعين، وأرجع كل ذلك إلى سوء تدبير الملوك والحكام، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد، وهو تخريج اقتصادى لم يسبق إليه أحد من المؤلفين قبله.

ويظل على هذا النحو مؤلفاً وفقيهاً ومؤرخاً ومفسراً حتى يلقى ربه، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة، التى أحبها وتغنى بكل شبر فيها، وكان ذلك عام ١٤٤٢ ميلادية الموافق ٨٤٥ للهجرة.

* * *